Archive of SID

إضاءات نقدية (فصلية محكّمة)
السنة الخامسة ـ العدد العشرون ـ شتاء ١٣٩٤ش/كانون الأول ٢٠١٥م
صص ١١٨ ـ ٩٧

موتيف النخلة والزيتونة فى شعر سميح القاسم

كبرى روشنفكر (الكاتبة المسؤولة)*
حامد پورحشمتى**

الملخّص

تحتلّ بعض الأفكار والأحداث مكانة مرموقة فى معيشة البشر ومثلما تتحوّلان إلى جزء من هواجسه الّتى تدفعه إلى المزيد من الإلحاح والتكرير، حتّى إنّها تظلّ له ميسما ذاتيّا ملازما قد يصوّرها متعمّدا أو عفو الخاطر، ولكن تكرار هذه الصورة المعّبرة عن الهواجس على التوالى يدلّ على أنّه ينهض بما لايطّلع على واقعه بحكم العادة؛ فقد يظهر هذا التكرار- بالرغم من أنّه ظاهرة نقديّة لغويّة - موتيفا يعتبر عنصرا بنائيّا فى النص الشعرىّ متجلّيا فى العلامات والدلالات اللتين يوظّف من خلالهما الشاعر الرموز والصور الشعريّة ليضفى على شعره ميسم الجمال. إنّ الموتيف فى الشعر سميح القاسم يحظى بأهمّية بالغة ويمنح المتلقّى مفتاحا يفتح به الفكرة الكامنة فى نصّه وسواء أيكون اسما أو فعلا أو جملة، يتبدّل إلى نقطة مركزيّة يحوم حولها شعره؛ ففى بعض الأحيان لينال رؤية معيّنة يتمسّك بالتكرار الّذى يرافق الإلحاح على هاجسته اللحظويّة مثل توظيفه موتيفى النخل والزيتون اللذين بلغ تكرارهما على الترتيب ٥١ و٦٩ مرّة فى أشعاره متناسبا مع الأهداف المقاوميّة الّتى يطالب بها المقتضى الشعرىّ حيث يحمل الأول منهما رموزا للاستقامة، والنشاط، والحياة الجديدة ويوحى الثانى بالتجدّد، والعمران، وتراث الشاعر الدينىّ الّذى انعقد بأحاسيسه الوطنيّة. تحاول هذه الدراسة تسليط الضوء على توظيف موتيفى النخلة والزيتونة فى شعر سميح القاسم مع الإشارة إلى المعطيات الإحصائية من تكرارهما فى الأشعار، والاعتماد على الطريقة الوصفيّة- التحليليّة الّتى تساعد على تحليل النصوص الأدبيّة وفكّ الرموز والدلالات فيها.

الكلمات الدليلة: الشعر الفلسطينىّ المعاصر، الموتيف، سميح القاسم، النخلة، الزيتونة.

*. أستاذة مساعدة فى اللغة العربية وآدابها بجامعة تربيت مدرس، طهران، إيران
kroshan@modares.ac.ir
**. طالب مرحلة الماجستر فى اللغة العربية وآدابها بجامعة تربيت مدرس، طهران، إيران
التنقيح والمراجعة اللغوية: د. جميل جعفرى
تاريخ الوصول: ١٣٩٤/٧/١ش تاريخ القبول: ١٣٩٤/١١/١٧ش

www.SID.ir

Archive of SID

المقدمّة

إنّ الموتيف[1] دراسة نقديّة تحلّل النص الأدبي ويوصف دالّاً رافدا على فهم المدلول وموقفا منهجيّا في صياغة النص بحيث يستوعب مجموعة حثيثة من العناصر السرديّة المتعاضدة لتكوين بنيته العميقة ويقف موقف الصورة لإضفاء الجماليّة على النص. يقوم الموتيف على تكارير تعكس زاوية من المواقف الذاتيّة والإنفعاليّة، غيرأنّ كل تكرار لابدّ أن يملك في حناياه دلالات نفسيّة وتأثّرية مختلفة على أساس السياق النصيّ، ولولا ذلك لكان تكراراً بحتا لمجموعة من أشياء لاتضطلع بمعنى أو وظيفة في هيكلة النص؛ لأنّ التكرار أحد أدوات جماليّة تجعل الأديب يقدر على ترتيب موقفه وتصويره؛ فمن المحتمّ أن يعتمد التكرار على مضمون كامن وإلّا يغدو هذا مجرد حشو. (المنصور، ١٤٢١ق: ١٣٠٥و١٣٠٤) يستخدم الموتيف لتحقيق جماليّة محدّدة وفائدة مرجوّة داخل النص الأدبيّ عبر الإعادة والتكرار إمّا بلفظة أو بفكرة دون قيامه على تكرار عشوائي غير مثير بل يمكن الحصول عبره على ما يدور حول النفس الإنسانيّة إلحاحيا من عاطفة، وأحاسيس، وطبيعة الشعر، والسياق الشعريّ، والانفعالات النفسيّة، وتقرير المعاني، والربط بين الأبيات، والموسيقى الشعريّة، وعكس تجربة الشاعر، ولغته الشعريّة، وإشاعة النظم والتنسيق.

أمّا الموتيف عند سميح القاسم فهو أحد الظواهر الفنّيّة البارزة في قصائده وقد تتنوّع مظاهره حسب الحالة النفسيّة والشعوريّة الّتي تحدق بالشاعر أثناء لحظة تجربته الشعوريّة ولحظة الإبداع؛ إذ هنالک بعض المواضيع، والأفكار، والصور الأثيرة الّتي تغلبه بعض الأحايين؛ فيكرّرها للمواكبة لكلّ الأحداث المتّصلة بقضيّته (القطّ، ٢٠٠١م: ٧٦) بغية التأثير في المخاطب أو إزالة الستار عن حسّ باطنيّ يلازمه من خلال الحياة؛ فكانت قصائده أشدّ القرب من نبض الحياة اليوميّة فعلا وفاعليّة حيث لايأتي الشاعر بالصورة الواقعة في ساحة الخيال إلّا على قدرما يسرد عن واقع ملموس يعيش كلّ جزئيّاته (سقيرق، ١٩٩٣م: ٢٣)؛ فيخلق إمتزاج الخيال والواقع عند القاسم صورة شديدة الغليان، والثورة، والفاعليّة ويتمّ كلّها بتوظيف الفكر والصور المختلفة في قالب

1. Motif.

www.SID.ir

Archive of SID

المفردات والتراكيب المكرّرة مثل توظيفه المتوالى شـجرتى النخلة والزيتونة على صعيد المقاومة فى طيّات أشعاره.

أسئلة البحث

١. ما هو دور موتيفى النخلة والزيتونة فى شـعر سميح القاسم بين القصائد إحصائيّا ودلاليّا؟

٢. كيف يتمّ تقديم موتيفى النخلة والزيتونة ودورهما التوظيفى فى شعر سميح القاسم على قالب الفكرة، والصورة، والواقع؟

خلفيّة البحث

إنّ الموتيف يعتبر موضوعا جديدا فى الأدب ولا تعود الدراسة حوله إلى زمن بعيد، لكنّ المحاولات الأولى فى هذا المضمار غربيّة؛ فأوّل من قام بالدراسة حول الموتيف كان "اسـتيت تامسون" الإمريكىّ حيث كانت دراسـته هذه على نطاق معجم الموتيفات فى الأدب الشعبىّ فى كتابه "**الحكاية الشعبيّة**" سنة ١٩٤٦م، راميا من خلال العناية بالموتيف إلى تصنيف الحكايات الشـعبيّة العالميّة فى بدايات القرن العشـرين، ثمّ تليه الدراستان مـن "اليزابت فرنزيـل" الألمانيّة فى كتابيه "**مضامـين الأدب العالمىّ**" و "**موتيف الأدب العالمـىّ**" (تقـوى ودهقان، ١٣٨٨ش: ٩ و ٨)، أمّا فى عالمنا اليـوم فأُخِذ الموتيف بعين الاعتبار فى المجتمعات الأروبيّة عنصرا نشيطا فى نقد الأعمال الأدبيّة وتحليلها، وجلّ العنايات حول فاعليّته لاتعود إلا إلى السـنوات الأخيرة، غير أنّه لايحظى فى الأدبين العربىّ والفارسـىّ بخلفيّة واسـعة؛ فجرت فى الأدب الفارسىّ أعمال عدّة تدلّ على أنّه سبق اللغة العربيّة فى هذا الحقل، على سبيل المثال:

تمّت دراسـة تعنون بـ"**كاركرد موتيف در داستان**: توظيف الموتيف فى القصّة"، كتبتها بروين سـلاجقة سـنة ١٣٨٣ش وجعلت فيها الموتيف نقطة مستهلّة لوجهة نظر الرمز فى الأدب مفتّشة عن أعماله فى نقد معتمد على التحليل وفرّعته إلى ثلاثة ضروب: الموتيفات المتكرّرة فى عمل خاصّ والّتى تعدّ هاجسة الكاتب أو الشاعر فى العمل الأدبىّ، الموتيفات

www.SID.ir

Archive of SID

المتكرّرة فی جمیع أعمال الأدیب أو فی بعضها ممّا یتراءی أن تظهر هاجسته اللحظویّة أو الخالدة والموتیفات المتکرّرة التی تجلو فی کلّ شیء وتمنحه میزة معنویّة.

أمّا الدراسة التی تسهم إسهاما بارزا فی معرفة الموتیف وتنفیذه، فکانت بحثا کتبه محمد تقوی وإلهام دهقان بتسمیة "**موتیف چیست و چگونه شکل می‌گیرد**: ما هو الموتیف وکیف یتکوّن"، والّذی انتشر فی مجلة النقد الأدبیّ بجامعة تربیت مدرس بطهران سنة ١٣٨٨ش، وقام الباحثان فیه بتعریف الموتیف اللغویّ والاصطلاحیّ، ووظیفته فی عالم الأدب وتحلیل الأعمال الأدبیّة ثمّ ساقا الکلام إلی صلته بمصطلحات متشابهة معه. فضلا عن ذلک کتبت رسالة الماجستیر بقلم إلهام دهقان وإشراف محمد تقوی بتسمیة "**موتیف و گونه‌ها و کارکردهای آن در آثار داستانی صادق‌هدایت**: الموتیف وأنواعه ووظائفه فی أعمال صادق هدایة القصصیّة"، انتشرت سنة ١٣٨٨ش، حیث توظّف الباحثة الموتیف فی قصص صادق هدایت واقفة علی أضرابه مثل الموتیف الواعی والعشوائیّ، والموتیف الفنیّ والتمثیلیّ، وموتیف الفکرة والعاطفة؛ ثمّ تشیر إلی علاقته بسائر العناصر الشعریّة.

إنّ الدراسات الّتی استهدفت المقاومة ولاسیّما المقاومة الفلسطینیّة تتوافر جدّا، لذلک نمرّ بالبحوث المتناثرة حولها ونزید من ترکیزنا علی زاویة ممّا یعنی بسمیح القاسم علی منظور الأدب المقاوم:

رسالة ماجستیر تعنون بـ"**مضامین اجتماعی و انقلابی در اشعار سمیح‌القاسم**: **المضامین الاجتماعیّة والثوریّة فی أشعار سمیح القاسم**" کتبها سید اسماعیل حسینی أجداد نیاکی لعام ١٣٧٩ش، وهی تعتبر دراسة علی التعریف بأعمال سمیح القاسم والإطّلاع علی خصائصه الشعریّه؛ فیقسّم الباحث رسالته إلی أربعة أقسام ولکن ما یرتبط بنا هو القسم الثانی الّذی یأتی فیه بالمضامین الإجتماعیّة والثوریّة لدی الشاعر منها الوطن، والمقاومة، والکفاح و... هذا وقد خصّص الباحث عنوان القسم الثالث منها بخصائص الشاعر الفنیّة وأیضا بالرمزیّة فی شعره.

والأخری رسالة "**تحلیل عناصر مقاومت در اشعار سمیح القاسم، سید حسن حسینی وقیصر امین پور**" کتبها مرتضی زارع برمی سنة ١٣٨٩ش وعالج فیها مضامین المقاومة

www.SID.ir

Archive of SID

بين ثلاثة شعراء فى إطار دراسة مقارنيّة بين الأدبين الإيرانى والفلسطينى المقاوم، ولكن مايخصّ سميح القاسم فيها يفيد بأنّ الباحث تمكّن من الوصول إلى مضامين جديدة فى قصائد الشاعر مثل رسم صورة من المعاناة فى الشعب الفلسطينىّ، والدعوة إلى القتال، وازالة الستار عن نهب الكيان الصهيونىّ وجرائمه، والروح المتفائلة بالمستقبل الزاهر و...

يكفى لعلوّ شأن هذا الشاعر أن تكتب دراسة يحوم مغزاه حول سرّ خلود أشعاره هى "**راز ماندگارى سروده هاى سميح القاسم: سرّ الخلود لأناشيد سميح القاسم**"، بكتابة السيد فضل الله مير قادرى وحسين كيانى سنة ١٣٩٠ش. يقدّم فيها الباحثان مقدّمة على ظهور شعر المقاومة الفلسطينيّة مع النظرة الموجزة إلى حياة سميح القاسم ويتطرّقان إلى أسباب خلود أشعاره مشيرين إلى مقدرته الفذّة على احتمال الشدائد وخلق الفنون والصور الجميلة فى رسم الوقائع ونقل الأمل فى المستقبل الزاهر إلى شعبه وفى النهاية التزامه بالواجبات البشريّة.

كتاب "**سميح القاسم وشعر معاصر فلسطين**" ألّفه حسين أبويسانى سنة ١٣٩٢ش وفرّعه إلى القسمين: الأوّل ينظر فيه الباحث إلى الشعر الفلسطينىّ المعاصر قائما بتقسيمه إلى خمسة إتّجاهات أدبيّة، خُذها من التقليديّة إلى الحركة الشعريّة الجديدة، ويهدف فى القسم الثانى إلى سيرة سميح القاسم وينصّ على دوره المرموق فى الشعر الفلسطينىّ عارضا لمقتطف من نماذجه الشعريّة ليعرّف المتلقّى بأفكار الشاعر، ومعتقداته، وصوره الشعريّة.

تحسّبا للدراسات الأدبيّة الّتى جرت بشأن شعر المقاومة لم يعثر على دراسة تكون قد ركزّت فيه على الموتيف، ناهيک عمّا يخصّ سميح القاسم وشعره، ولكن ما يزيد من الجدّة فى دراستنا هو القصد فيها بخطوة واسعة نحو العثور على موتيفى النخلة والزيتونة، على إعداد إحصائيّة من دورهما المكرّر فى القصائد مع تحليلهما الأدبىّ والدلالىّ.

الموتيف ومكانته الأدبيّة

أستقى الموتيف من اللغة الفرنسيّة (movere)؛ وهو ترجم فى اللغة الفرنسيّة إلى

www.SID.ir

Archive of SID

الباعث، والداعى، والدافع، والعلّة، والفكرة الموسيقيّة (ألوان والآخرون، ٢٠٠٤م: ٥٥٢ و ٥٥١)، أو هو صورة وشخصيّة تنتشر فى كثير من الأعمال الأدبيّة وتعرض صدفة فى قضيّة واحدة بصورة لايت موتيف (بالديک، ٢٠٠١م: ١٦٢)، وفى اللغة الإنكليزيّة كجزء محدّد من المركّب الفنّى (آكسفرد، ١٩٧٨م: ٥٩٢)، وأصل اللفظة بهذه الهيئة ودخلت من الفرنسيّة إلى اللغات العالميّة الأخرى بيدأنه فى الفارسيّة تلقّى مضمونا خاطئا وترجم إلى "بن مايه" أو "درون مايه"؛ لأنّ "بن مايه" فى دراسة النص يحظى بحيّز واسع وكلّ طرق يمكن أن تصل بالمتلقّى إلى المضمون ولكن الموتيف أحد هذه الطرق وعلامته تكرار مؤثّر يندرج ضمن معالجة المضمون.

والموتيف قد يجلو لفظة وقد يكون فكرة أو صورة تتكرّر فى الإنتاجات الأدبيّة ويشتمل على رافد أساسىّ تتبدّل فيه أشكاله ومركّباته، ويرتبط بالإلحاح على قضيّة تشغل الذهن مثل ضرب من الحادثة، والنظام، والإشارة، والصيغة الّتى توجد فى كثير من الأمور كما يمكن أن تتحوّل به بنت مستكرهة إلى أميرة جميلة بوصفها موتيفا فى القاموس الشعبىّ ويكون تطوّر القصّة قد وضع النقطة عليها. (آبراهامز، ١٩٩٩م: ١٦٩) فى الواقع حينما تشغل قضيّة ما بال الأديب فلا مراء فى أنّها تتجلّى فى عمله ومن هنا ينطلق دور الموتيف الّذى يقيم علاقة وطيدة بين مشغوليّات الأديب، وأفكاره، وهواجسه بالصورة التى يرسمها أو بعبارة أخرى، هو ثقبٌ فى صدر الأديب ليُخرج ما يكون فيه من المعتقدات، والأحزان، والابتهاجات و ....

يعرّف الموتيف عنصرا تعمديّا أو إعتباتيّا منتميّا لمهارة أدبيّة يوظّفها الأديب فى نصه وقديكون لفظة أو فكرة أو صورة غالبة على النص حيث تصعب فى الظروف العاديّة معرفته، غيرأنّ التطوّر الشكلىّ هذا يزيد من قيمة النص الجماليّة ويرفع قابليّته التحليليّة والنقديّة، ويفيد بمدى مقدرة الأديب على التعبير عمّا يشغله على التوالى. فليس المراد بالموتيف متوقّفا عند تكرار قضيّة عشوائيّة فى البنية الشعريّة بل ما يهمّه فيه هو الوقع الانفعالى الملحوظ فى المستلم حيث لاتدرک درجة هذا التأثير والتأثّر إلّا عبر معالجة الموتيف والعثور على عناصره المتكوّنة، فكلّ موتيف يضمّ دلالات نفسيّة وانفعاليّة تطالب بها طبيعة الإطار النصّى ولولا تلک ليصبح بالتأكيد تكريرا بحتا دون

www.SID.ir

Archive of SID

الرمى إلى غرض ومعنى؛ وعيا بذلک لقد كان الموتيف فى شـعر سميح القاسم أيضا أحد الأدوات الجماليّة الّتى تسـعفه ليُنعِم على عمله بصـورة واقعيّة وخياليّة دون المفرّ إلى القضايا الافتراضيّة، لذلک انتخبت دراسـتنا – بين معجم الموتيفات الّتى يعثر عليها فى قصائد الشاعر بكثافة – موتيفى النخلة والزيتونة لإزالة الكواليس عن دورهما المكرّر والتوظيفىّ فى كافّة أشعاره المقاوميّة القارعة.

موتيف النخلة

النخل[1] هو شجر التمر وسيّد الشجر ومفردته نخلة – والاسم الآخر له النخيل المعرف باسـم الجمع – وهو يسـتعمل للتذكير والتأنيث. (ابن منظور، لاتا: ٤٣٧٨) تنتشر أشجار النخلـة فى المناطق الحارّة من العالم، لكنّه فى العالم العـربىّ يتميّز بثماره وبجذعه الطويل خاصّة منها فى العراق، ومصر، والجزائر وفلسـطين و... وهو مجرّد شـجرة بين الأشـجار لايتسـاقط ورقها، ولكلّ جزء منها فائدة عظيمة كليفها[2]، وسـاقها، وجريدها[3]، وسعفها[4] ناهيک عن الموادّ المستخرجة من ثمرتها. (العمارى، ٢٠١١م: ٢٤٠) لقد جاءت النخلة فى القرآن الكريم عشرين مرة بصيغة المفرد تارة، والأخرى بصيغة الجمع، وأيضا بغير لفظتها مثل الإشـارة إليها ب "الشـجرة الطيبة واللينة" و"حدائق غلبا" لمكانتها وأهميّتها حيث يشاهد الإبداع فى هاتين التسميتين اللتين لم‌يسمع من العرب الإطلاق عليها هكذا.

ولشجرة النخل حصّة بارزة فى الأدب العربىّ قديماً وحديثاً، واهتمّ بها عشّاق الأدب من الكتّاب والشـعراء فصيحة وعامية، رسميّة وشـعبيّة بجعلها مـادّة طيّبة لإبداعاتهم الأدبيّة، وهى فى الشـعر الجاهلىّ ذات علاقة وثيقة بالمرأة، والناقة، والخيل، وتتجسّـد فى صـور تفرض نفسـها على الخيال الواقعىّ مثل ضـرب النخل جذورها فى الأرض، والتطـاول بقاماتهـا قمم الجبـال، تهبّ عليهـا الريـح وتنجذب الفـروع إلى الفروع، ويتشـابک فيها السـعف والجريد، ومن كثافتها كأنّها ذوائب الجوارى المهفهفة فى مهبّ

1. date palm.

٢. الليف: جمعه الألياف؛ قشّ النخل.

٣. جريد النخل: ورقه.

٤. السعف: فرع النخل.

www.SID.ir

Archive of SID

الريح إلى الشـاعر العربىّ يصفها بأنّها أرض عربيّـة (عجينة، ١٩٩٤م: ٢٧٧) والعلاقة الرمزية الباطنة بين المرأة والنخل فى الشـعر الجاهلى، يعود سـببها إلى أنّ قطيع الابل حينما يلوح من بعيد كأنّها شـجرة النخلة، وبخاصّة إن كانت عليها الهوادج الّتى تشـبه النخل للغاية. (العبسى، ١٩٩٤م: ٢)

إنّ النخـل لايقتصر دوره الفعلىّ على الإبداع الأدبىّ بل يتجاوزه شـاملا للإبداع الفنّى التشـكيلىّ الّذى يجعلها من أهمّ الموتيفات والزخـارف فى الفنون العربيّة (جمعيّة أصدقاء النخلة، ٢٠١٣م: ٣٨)، وترتبط شـجرته فى الشـعر الفلسطينىّ المعاصر ارتباطا متماسـكا بالانتماء وتظهر الموقف السلبى تجاه واقع فلسـطين المرير، وعلى الرغم من النظرة السلبيّة التى تحملها الشجرة تجاه انتمائها القومىّ غيرأنّها تدلّ على الصدق الناتج عن قلب الشـاعر الفلسطينى سميح القاسم؛ فليس توظيفه النخلة فى قصائده إلّا دفقات شـعورية يدفع بها الإحسـاس بالشـعور القومىّ وإلى التفتيش عن مخرج للمحنة التى يعيشها؛ فليخفّف من قسوة الأيام التى يعيش بين لظاها، يلجأ إلى مجموعة من التكارير المتبعثرة فى أشـعاره، تناول القاسم فى شـعره لفظة النخلة ٥١ مرّة، خذها من مجيئتها فى عنـوان القصائد ک "نخلة السـاحة" و"نخلة النص" إلى تكرارها المتزايد فى السـطور الشعريّة للقصائد كما تبيّن ذلک هذه الإحصائيّة:

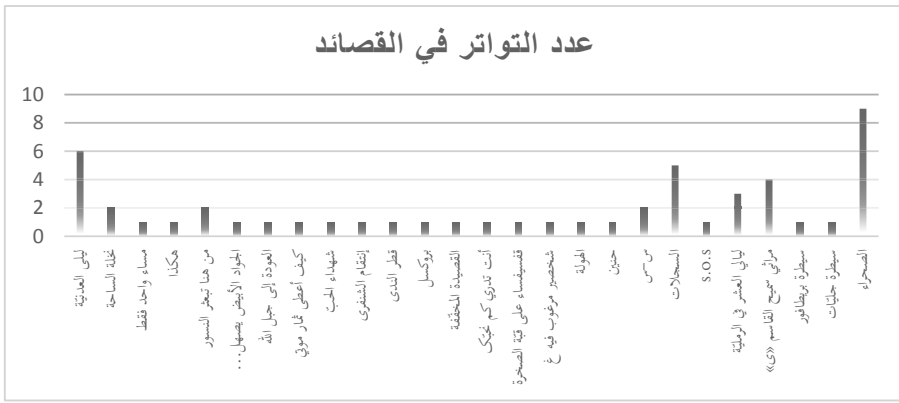

كما يتّضـح أنّ قصيدة "الصحراء" أحرزت معظم الأعداد المكرّرة من لفظة "النخلة" ومما يكون فى جذرها بتكرارها البالغ تسـع مرّات وهى نسـبة بمعزل عن القصائد الّتى تلحقـه تكراريّـا كقصيدة "ليلى العدنية"، و"السـجلات"، و"مراثى سميح القاسـم". وفى

www.SID.ir

Archive of SID

جلّهــا قلّمــا نجد صورا قديمة من النخلة بل فى أغلبيّة ســاحقة منهــا تجلو صور مختلفة عــن الصورة المألوفة نحــو الجمال الّذى ينبع من وجدانه وأخيلته المصقولة فى مســيرة الأهــداف المقاوميّة؛ فيســتطيع أن يطوِّع لغتها ناجحة ويغيّر دلالتها متماشــيا مع تنمية تجربته الشعوريّة، ومواكبا للانفعالات الشعرية، والبلاغية، والفكريّة الّتى يجمعها فى ذهنه ويخرجهــا تكراريّا فى قالب الأهداف الّتى لاتخرج من إطار المقاومة مثل وصفه النخيل "رائعا" و"بائسا" ووصلها بأحداث فلسطين:

رائعا كانَ **النَّخيلُ**
بائسا صارَ **النخيلُ**..
بعدَ أن أهوىَ علىَ الشاطىء، مرزوقَ القتيلِ
بِرَصاصاتِ الدخيلِ..
خرَّ[1] مرزوقٌ، وعَيناهُ، وعَينُ البُندقيّةِ
فِي الوُحُوشِ الأجنَبيّة (القاسم، ١٩٨٧م، ج١: ١٥٩)

تتحوّل النخلة لدى القاســم إلى انسان فلســطينىّ مقاتل ينعم بالميسمين المتناقضين اللّذين لايمكــن اجتماعهما معا وهمــا ال"رائع" وال"بائس"؛ فكلاهما حالة الإنســان الفلســطينىّ الّذى جرّب الموقفين قبــل الإحتلال وبعده؛ فقبلــه كان رائعا مخضرّا عاليا وبعده صار بائســا مرزوقا خاضعا. فتشخيص الشــاعر للنخلة يصل إلى حدّ أنّه يجعل لها عينا متســاوية وأنيســة مع عين البندقيّة، كأنّ الشاعر يرى أنّ النخلة والبندقيّة لهما عينــان ترتبطان ببعضهما بواســطة الوحوش الأجنبيّة الّتى هى رمــز للعدوّ الصهيونىّ؛ فيصبح النخيل إنسانا فلسطينيّا تطلق عليه رصاصات الصهاينة وهو ينظر إلى البندقيّة، والبندقيّة أيضا تنظر إليه. هذه الصورة ضرب من صورة شعريّة يعرضها القاسم فى لحظة دمار النخلة الّتى تفقد بهاءها وجلالها بخرّها على الأرض نتيجة الإحتلال.

إنّ النخلة الّتى يرسمها القاســم فى شعره شــجرة تتصف بميزات يبعد عنها غيرها من الأشــجار وهى شجرة تستلهم الآخرين بتغييرات تقع فى شكلها وهيكلتها؛ فتتعامل مع القاســم فى النضال، لكنّها لاتستحســن منهجه فى الاكتفاء بالأغانى بل هى الّتى ترشــد

١. خرّ: سقط وانكبّ على وجهه.

www.SID.ir

Archive of SID

الشاعر إلى أنّه ماذا يفعل؟ وفيمَ ينشد؟ لذلک تنادى الشاعر وتهدّده بقطع الثمار حين لم يمسک عن الأغنية الّتى لاتنفعل بها الشجرة بل ما يهمّها هى المزاولة للأفعال الأساسيّة الّتى تهزّ أعماق العروبة وجذعها:

نَخلةُ الساحةِ نادَتنى مِرارا
آه يا أمِّى
وَقالَت لِى مِرارا
أنا لا أعطِى ثَمارا
لِانفعالاتِ الأغانِى
أنا لا أعطِى- إذا ما هزَّ جَذعِى ساعدانِ
...
علّمَتنى **نخلةُ** الساحةِ
يا أمِّى الحبيبةِ..أن أهزَّ الآنَ أعماقَ العُروبةِ
أن أهزَّ الجذعَ،
إن شِئتُ ثِمارا (القاسم، ١٩٧٨م، ج١: ٣٩٣ - ٣٩١)

يتعامل الشــاعر مع شجرة النخلة الّتى تصبح مرشدة لما يجب عليه القيام به وترشده بلهجة ممزوجة بالتهديد المتوقّف على أنّها لاتمنحه ثمرة إن واصل الإعتماد على الأغانى؛ فالشــاعر الّذى كان هــو رائدا للحركات المقاوميّة يتعلّم طريقة المقاومة من الشــجرة، هى الّتى لاتثمر بالأغانى بل بهزّ جذعها. لايشــير هذا المقطع من الشــعر إلّا إلى رفض نضال الشــاعر الأدبىّ وانحصاره فى الشــعر وليس ذلک إلّا اســتلهام لكلام يصدر من شــجرة تبخل هنا فى حين تعدّ رمزا للكرم والجود لدى العرب (خلف، ٢٠٠٦م: ١١٤)، لكنّها لاتبذل ثمرتها إلّا بحركة تستحقّ الجود والسخاء هى "هزّ الجذع" الّذى يتراءى أن يدلّ على مطالبتها للشــاعر بإعداد نفسه على الدخول فى المعركة وعدم اكتفاءه بسلاح القلم الشاعرىّ للمقاومة. وأمّا إشارته إلى عناية الشجرة بالعروبة فأشدّ قرينة قربا من مضمون المقاومة بين سائر الألفاظ المستخدمة فى هذه الفقرات الشعريّة.

شجرة النخلة فضلا عن ميزتها المرشده تتصّف عند القاسم بشجرة تنطوى فى نفسها

www.SID.ir

Archive of SID

علــى الكثير من الملامح الإيجابيّة حيث ترتبط مقاومة الأرض بمقاومتها كأنّها أصبحت رمزا للإســتقامة الخالدة للأرض الّتى تخــوض فى التيّارات العديــدة، فلو تفقد دوامها ويزول جمالها وطولها ليتغيّر كلّ النواميس الّتى سُنّت لتأخذ مكانها الصائب فى النواميس الأخرى وينعدم كلّ الأنظمة الّتى وُضِعت لتؤدّى العلاقات الصحيحة بين الأشياء؛ فزوال الشجرة يعنى زوال كلّ النواميش والأنظمة فى الطبيعة:

فِي انقصافِ[١] **النَّخيلِ**/ الجَميلِ/ الطَويلِ
كلُّ مئذنةٍ تَستحيلُ
شاعِرا
أو قتيلٌ
كلُّ أغنيةٍ قُنبلةٌ
كلُّ مرثيةٍ بُوصلةٌ[٢]
كلُّ قنبلةٍ سُنبلةٌ
كلُّ سنبلةٍ مُعضَلةٌ
كلُّ مُعضلةٍ معبرٌ
نَحوَ بابِ الزِّمانِ النبيلِ .. (القاسم، ١٩٩٣م، ج٣: ٦٠٣)

تظهر شــجرة النخلة فى هذه الفقرة محورا يتوقّف عليه كلّ النظم والأحداث الّتى تقع حول القاسم من السمعيّة والمرئيّة؛ فهى شجرة جميلة طويلة تشبه المئذنة؛ لأنّ بنية المئذنة مســتمدّة من هيكلة النخلة الاسطوانىّ الّذى يرتكز عليها البناء الهندسىّ للكتل البنائيّة المسقفة، وهى سمة تتّســم بها العمارة الإسلاميّة على مرّ العصور. (عبدالأمير، ٢٠١٠م: ٥٥٢) تحمل النخلة فى شــكلها نموذجاً كاملاً للمئذنة وتحمل معها نظاماً أو نظماً هندسيّة دقيقــة لكيفيّة بناءها، فتضع لها مركزا متوسّــطا يقوم على عمود قائم أســطوانىّ البنية هو الجذع وتبلغ مشــابهمتهما فى مشهد القاسم نهاية مبلغها حين يصير انقصاف النخلة متساويّا مع زوال المئذنة الّتى هى أوّل شىء تستحيل بعد انعدام الشجرة.

١. الإنقصاف: الإنكسار.
٢. البوصلة: جهاز فيه إبرة مغنطيسيّة تدور على محور دقيق، يتّجه رأسها دائما إلى الشمال.

www.SID.ir

Archive of SID

يعترى زوال النخلة سائر الدلالات مثل تحويل "الأغنية" الّتى تتحوّل إلى "القنبلة". فى الواقع الشاعر الّذى يغنّى لشجرة النخلة لتمنحه الثمرة لم يعد يجد حافزا وباعثا لغناءه؛ لأنّ شجرة النخلة إن لم توجد لديه فما هو الّذى يستلهم الشاعر على خلق الأشعار وتحويلها إلى الأغانى؟ فلافارق له أن تكون الأغنية أغنية أو قنبلة، هناك تراسل الحواس بين "القنبلة" والسنبلة"؛ ذلک أنّ الأولى سمعيّة والثانية مرئيّة قاصدا من وراءه أن ينقل بالتلاعب بالألفاظ وخلط الدلالات بصورة متآزرة ما يحسّه بالتجربة المتصارعة فى نفسه والمستحوذة على تفكيره من جرّاء مواقف محدّدة يبذل الشاعر جهده لترجمتها فى طرق فنّيّة تعينه على إظهار كوامنه النفسّية (عنوز، ٢٠٠٧م: ١٦٨)، ويضفى حالة سمعيّة على مايدرک بصريّا على طريق الإستعارة ليفاجئ المتلقّى ويبعده عن الصور التقليديّة المألوفة.

وفى تركيب ما قبل الآخر يعنى "كلّ معضلة معبر" يبدو تواجد التناص الإمتصاصىّ – هو الإكتفاء بأخذ معنى النص الغائب دون الاتّكاء على مبناه يعنى الأديب يستلهم مضمون نص أو فكرة دون أن يكون من هذا النص وجود لفظىّ واضح فى أثره (لوشن، ١٤٢٦ق: ١٠٢٦) – للآية الشريفة "إنّ مع العسر يسرا" ليبيّن أنّ الرافد هو "النخلة" ولو انعدمت، لكنّ الزمن هو الّذى يصلح كلّ الأمور ويعيد النظم إلى الأشياء والكائنات.

لاغرابة أن تكون النخلة لدى القاسم رمزا للحياة الجديدة والنشاط، وعلامة واضحة لخلود الأرض وربّما يتغلغل خلودها فى قضيّة أمّه الّتى بالرغم من تجربتها الكوارث المتعدّدة غيرأنّها لاتزال تقوم على رجليها مقاومة مثل شجرة النخلة الّتى فقدت كلّ ما نبت منها وخرج من التراب لكنّ جذرها الباقى يخلدها ويجعلها سّرا من أسرار مكان نبت منه هو الطين:

كانَت عاصِفةٌ مِن لَدُنى
وَعَواصِفُ كانَت مِن لَدُنک
هَلَعَت[١] وَانتهکَت سعفاتُ **النخلةِ** عنقودُ **النخلةِ** جذعُ **النخلةِ**
أبکى، يا ربَّ الجندِ القاضِى وَالشاهِد، أم أشکُرُ

١. هلع: إضطرب.

www.SID.ir

Archive of SID

مادامَت بعضُ جذورِ **النَخلةِ** سِرّا مِن أسرارِ الطّينِ.. (القاسم، ١٩٩٣م، ج٤: ٩٥و٩٤)

تصبح النخلة فى هذا المشهد الشعرى تجسيدا لمقاومة أمّ القاسم المعانية للعواصف المتعدّدة، فى الواقع يعدّ الشاعر – الّذى دخل المعارک الأدبيّة وتذوّق ضروب التنكيل والنفى– المعاناة الحقيقيّة بأمّها؛ لذلک يأخذ لنفسه عاصفة واحدة هى هنا رمز للظلم والمعاناة ولأمّه عواصف عديدة، ولرسم المعاناة الّتى التحقت بأمّه يصوّر النخلة الّتى تنتهک من الجزء إلى الكلّ. فيبدأ انتهاک الشجرة بفروعها "سعفات النخلة" ثمّ عنقودها وفى النهاية جذعها، كأنّ الدمار ينزل على الشجرة من الأعلى إلى الأسفل بيد أنّ جذرها يسلم من الدمار؛ وذلک أنّها تمتاز بسرّ من أسرار الطين، فى الحقيقة تتكوّن فى ذهن القاسم غوامض من حقيقة النخلة الّتى قضت العواصف على هيكلتها لكنّ جذرها يخلد تحت الطين، فليس ذلک إلّا تذكير الثبات فى أمّ تهبّ عليها الرياح الشديدة غيرأنّها ضربت جذورها وثيقة فى طين الحياة ولايعلم سرّه غير الله تعالى؛ فيناديه القاسم مجهشا بالبكاء ليطّلع على الحقيقة المضمرة فى هذه القضيّة.

موتيف الزيتونة

شجرة الزيتون[1] من الأشجار التابعة للفصيلة الزيتونية[2] وهى شجرة معمرة دائمة الخضرة وعادة تنبت بثمرة الدهن وهو الزيت (المصلح والصاوى، ١٤٢٩م: ٣٣٩)، ثمّ تزهر وتثمر بعد أربع الى خمس سنوات، متحوّلة من لونها الأخضر إلى الأسمر بعد نضجها وتستمرّ فى إعطاء ثمارها أكثر من ألف عام. ثمرة الزيتون من الثمار الغضة، وتعتبر شجرة مباركة لأنّها أوّل شجرة نبتت فى العالم، وأوّل شجرة نبتت بعد طوفان نوح (ع) وورد ذكرها فى القرآن الكريم فى ستّة مواضع هى سور الأنعام آية ٩٩، و١٤١، والنحل آية ١١، والنور آية ٣٥، وعبس آية ٢٩، والتين آية ١.

والزيتون يملک فى وجهة النظر الفلسطينيّة قيمة لملكيّة الأرض، وجمالها، وروعتها بخضرتها المستمرّة الّتى تكسو الطبيعة والجبال، وهو أساس لحياة الإنسان الفلسطينىّ الّذى يتضرّر ويخسر بإصابته، ويصل وقع هذا الخسران إلى أشدّ حالاته حينما يمنع

1. Olea Tree.

2. Family :Oleaceae.

www.SID.ir

Archive of SID

إسرائيل المجارى عن الإتصال بأشجاره تخسيرا للشعب الفلسطينىّ. وأمّا اختيار الشعراء الفلسطينيين شجرة الزيتون فى أشعارهم فيرجع سببه إلى الصلة التأريخيّة بينها وبين أرضهم؛ فهى فى الخطاب الثقافىّ والسياسّى رمز للصمود، والبقاء فى هذه الأرض، وشاهدة على الحقّ التأريخى المسلوب، وتكوّن تحديا لافتراءات الآخر الّذى يظنّ أن جذوره التأريخية تمتدّ فى هذه الأرض (عتيق، ٢٠١٤م: ٨٤)، كما أنّ هذه الشجرة تختزل دلالة دينيّة على اعتبار قدسيّتها، ولاتنفصل قدسيّتها عن البعد العقائدىّ المعتبر أنّ أرضها وقفيّة .

شجرة الزيتون تسرد حكاية حبّ الشاعر الفلسطينىّ لأرضه المحتلّة وتبيّن قصة غراميّة لأرضٍ تسقيها الدماء ويفيض جوفها بجسوم آلاف من الشهداء، وسطّر على أرض الشجرة أبرز مياسم العزّ والمقاومة مع أنّها كانت بما تحمله من مضامين قوميّة عالية، مرمى لأعمال العدوّ الصهيونىِّ المجرمة. يستمدّ القاسم من شجرة الزيتون، عند التعبير عن الإستقامة والصمود، وكان المبعث ما تحظى به الزيتونة من قوّة عظيمة على التناسق مع المتغيّرات وعلى المعيشة الطويلة فى ظروف قاسية؛ فهذه الشجرة الدالّة على النشاط والقوام وعلى الرسوخ والتلاؤم تصبح للقاسم موضوعا قابلا للعناية ووارداً فى معجم موتيفاته بتكرار يوظّفه بوفرة فى كلّ أرجاء دواوينه وبالرغم من أنّه لامحلّ للفظتها فى عناوينه الشعريّة من القصائد والدواوين غيرأنّ تكرارها المثير يتناثر فى كلّ مكان من مجموعاته الشعريّة على قالب الهدف الواحد ولكن فى المواضيع المتعدّدة كما كرّر لفظتها ٦٩ مرّة فى جلّ الدواوين، والّتى بعضها مستقلّة بنفسها والأخرى تقترب من مضمونها؛ فالإحصائيّة التالية تؤيّد مبلغ التكارير العائدة إلى لفظة الزيتونة فى قصائد الشاعر كما يلى رسمها:

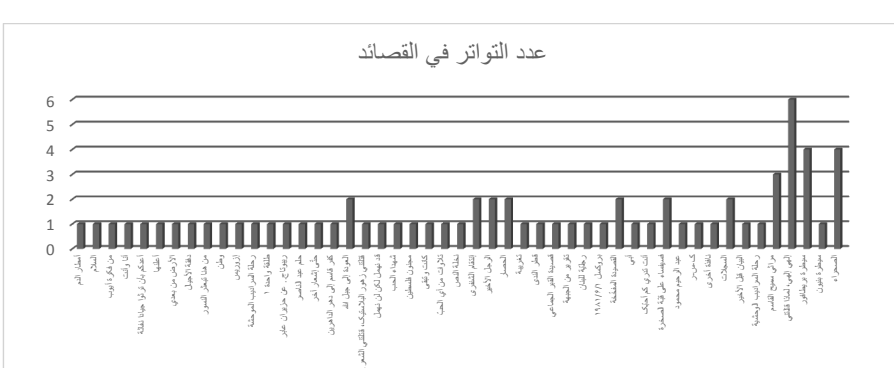

www.SID.ir

Archive of SID

يتّسع عدد الإشارة إلى الزيتونة فى قصيدته "إلهى إلهى، لماذا قتلتنى" حيث لم تكن قبله فى شعر القاسم مساحة ملحوظة تربو إشارته إلى الزيتونة على ستّ مرّات بينما لايمكن أن يعثر على هذا المقدار من العناية بشأنها فى قصائده الأخرى، ثمّ تلاحظ خطوته الثانية والثالثة إليها فى قصيدتى "الصحراء" و"سيرة بريطافور" اللتين تحظيان متساويتين بأربع مرّات من تكرار هذه اللفظة اللافتة للعناية. لقد ميّز سميح القاسم الزيتونة فى شعره عن غيرها من الأشجار برمزيّة رائعة لاتخرج من الميزتين اللتين إحداهما تعود إلى قدسيّة هذه الشجرة والثانية إلى دلالتها على وطن الشاعر بوصفه مكانا تنبت فيه الزيتونة، وتصبح الزيتونة رمزا للأرض المحتلّة بنفسها ورمزا للحياة والمقاومة حيث أى حركة عدوانيّة ضدها بمنزلة القيام باحتلال البلاد، على أيّة حال ينحصر كلا القضيتين فى حيّز واحد وهدف مماثل هو المقاومة الفلسطينيّة.

أمّا تلاحم الزيتونة مع العنصر الدينىّ فى شعر القاسم فينمّ عن تراثه الدينىّ الّذى يصوغ هيكلة أشعاره يظهر ضمن إنتاجه واعيا أو عشوائيّا، مباشرة أو غيرمباشرة ليثير به الشاعر فى القرّاء عواطفهم الدينيّة؛ لأنّ الموروث الدينىّ يشكّل على تنوّع دلالاته وتعدّد مصادره منبعا إلهاميّا ومحورا دلاليّا يحوك الكثير من المضامين والمعانى الّتى يستوحيهما الشاعر (الكسوانى، ٢٠١٢م: ٢١)؛ فما يقرّب القاسم من الله تعالى ودينه الإسلامه هو تمسّكه بالعدل والحفاظ على وطن الشاعر المحسّ بأنّ ظلّه تعالى يغطّى هذه الأرض ويحاميها بكلّ ما فيها مثل شجرة الزيتونة المباركة:

لَو صَحّ أنّكَ واهبٌ أرضى لَهم ... أنا مِنكَ يا ربَّ السماءِ بَرَاء
فَانظُر، ألستَ تَرىَ جبينِى بيدرا[١]؟ ... وَانظُر.. أنا زَيتونةٌ خَضراءُ
وَطَنٌ أنا.. مَرج ابنُ عامر قامتِى ... وَالنقبُ[٢] وَالأغوارُ[٣] وَالأرجاءُ
وَأنا حنينُ اللاجئينَ وَثورةٌ ... مِلءَ الوُجودِ، وَرايةٌ حَمراءُ

(القاسم، ١٩٩٣م، ج٢: ٤٠٣)

١. البيدر: الموضع الّذى يجمع فيه الحصيد ويداس.
٢. الأغوار جمع الغور: ما انحدر واطمأنّ من الأرض، قعر الشىء.
٣. النقب: التقب.

www.SID.ir

Archive of SID

يعتبر القاسم نفسه من يملک الشخصيّتين؛ الأولى منهما زيتونة خضراء. يعرّف الشاعر نفسه بزيتونة تتّسم باللون الأخضر وهو لون يذكّرنا لأوّل مرّة بلون الطبيعة والأشجار ويعبّرعن الحياة، والسرور، والسلام. (پيرانى شال وآخرون، ١٣٩٢ش: ٤٤) إنّ الزيتونة بنفسها رمز للسلام، وإضافة اللون الأخضر إليها تزيد من النزعة المسالمة فيها وفى من يوظّفها هو "الشاعر" ولكن هى فى هذه الأبيات أمام شخصيّة الشاعر الأخرى هى الّتى تتّسم بالراية الحمراء، لأنّ اللون الأحمر يدلّ فى الشعر الفلسطينى المعاصر على الثورة والتحرّر من الإستعمار (المصدر نفسه: ٣٣)؛ فذلک وجه آخر من سميح القاسم حيث تؤكّده قرينة من الشطر الأوّل فى البيت الرابع هى لفظة "ثورة" كما ذكِر قبله "حنين اللاجئين" يمكن أن يدنو من مضمون السلام فى تركيب "زيتونة خضراء".

يشكّل الموروث الدينىّ إرتباطا وثيقا بوجدان الشاعر الإنسانىّ ومرجعيّته الدينيّة، ولاسيّما تأثّره بالقرآن الكريم لاحتواءه على الكثير من الرموز الدالّة ولصلاحيّته لكلّ زمان ومكان كان جميعها دافعا ليغرف الشاعر المعاصر من منهله الّذى لاينضب (النوافعة، ٢٠٠٨م: ٧)، لذلک ليضفى القاسم على نصّه جوّا من القداسة يدرج الزيتونة فى مجموعة من مفردات تناصيّة مستعارة للآيات الشريفة مبتغيا ليصبغ أشعاره صبغة معنويّة:

لام نون
وَضَراعةُ[١] روحِى، عِمادِى فِى الحَمأ المَسنُون[٢]
والكَفَنُ الطالعُ مِن جِلدِى
وَالتابوتُ الطالعُ مِن جَسَدِ **الزَّيتونِ**
وَالأسلافُ الموتى الأحياءُ الموتى
وَالأحفادُ الآتونَ (القاسم، ١٩٩٣م، ج٤: ٨٨)

يراعى الشاعر فى هذا المقطع ترتيبا دقيقا تقع فيه الولادة والموت بلمح البصر؛ فيبدأ بسرعة من دخوله فى الطين الأملس "الحمأ المسنون" ثمّ يموت ويلبس "الكفن"

١. الضراعة: الخضوع والذلّة.
٢. الحمأ المسنون: الطين الأملس.

www.SID.ir

Archive of SID

وفى النهاية يُصنَع له تابوت من "جسد الزيتون". فبداية الإنفعال بالقرآن الكريم كانت بالمفارقة بين ترتيب الحروف المقطّعة فى مستهلّ المقطوعة الشعريّة وترتيبها فى القرآن الكريم للإعتراف بقداسة الحروف ونظامها المتميّز، أضف إليه تركيب "الحمأ المسنون" الّذى خلق البشر منه وهو جاء فى آيات ٢٦ و٢٨ و٣٣ من سورة الحجر وأمّا الآخر فهو تركيب "الأحياء الموتى" الآتى صفة للأسلاف فى قوله تعالى «ولاتقولوا لمن يقتل فى سبيل الله أموات بل أحياء ولكن لاتشعرون» (البقرة: ١٥٤)؛ فذكر المثالان ليطمئنّ إلى تواجد الزيتونة فى جوّ دينىّ وضعه القاسم لهذه الشجرة ليزيد من قداستها ومعنويّتها فى شعره.

الميزة الأخرى لشجرة الزيتونة فى شعر القاسم تنبثق عن شهرة الأرض الفلسطينيّة بها حيث تتجسّد هذه الشجرة لوحدها وطنا بكلّ جوانبها وتظلّ مجرّدة ما يحوزها القاسم من حياته ليدفع بها الحملات الصهيونيّة، فمعظم قدرة الشاعر يتلخّص فى زيتونة تحملها حمامة لتنشر السلام فى العالم مثل مايفعله ملك الله تعالى جبرائيل.

أصبَحَتِ اليومَ حمامة
حَمَلَت قصفةَ زيتونٍ[١].. وطارَت.
فِي بِلادِ اللهِ .. جِبريلا.. بَشيرا بِالسَّلامَة (القاسم، ١٩٨٧م، ج١: ٥١٦)

يعتمد الشاعر فى توظيف الزيتونة ودلالتها على قواها الأسطوريّة ليكمل صورتها فى شعره؛ فيومئ فى مستهلّ الأمر إلى الحمامة الحاملة للزيتونة هى الّتى تجلب فى الموروث العالمىّ الأمن والسلام مثل مافعلته لراكبى سفينة نوح (ع)، ولعلّ صورتها فى هذا القسم من شعر سميح القاسم تماثل الرسم الّذى رسمه الفنّان العالمىّ بيكاسو بجعل الحمامة حاملة بمنقارها غصن زيتون بوصفها رمزا للسلام (عسكر، ٢٠٠٩م: موقع الناس)؛ لأنّ الحمامة الّتى تذكر فى شعر القاسم أيضا تحمل قطعة من فرع "قصفة" شجرة الزيتون وذاك لايظهر إلّا روح الشاعر المطالبة بالصلح والسلام. وتكتمل صورة السلام فى شعره حينما يأتى بالبشير الآخر بالسلام وهو ملك جبرائيل الأمين الّذى يصبح رمزا دينيّا لإذاعة السلام فى بلاد الله هى فلسطين.

١. قصفة الزيتون: فرعه.

www.SID.ir

Archive of SID

إنّ الزيتونة لدى القاسم تحوى أكثرأشياء ثمنا يمكن العثور عليها فى فلسطين لكنّها أيضا لم تأمن من نهب المحتلّين؛ فحينما يزاولها القاسم فى شعره فمن المستبعد جدّا أن لا تكون ملامح من الشجن والحزن؛ وذلک أنّها تعيد الشاعر إلى جذوره وهويته بين أمّة العرب الّتى تستعير وجودها وجذريّتها من شجرة الزيتونة؛ فهى أقدم تأريخيّا من الشعب العربىّ:

زيتونةٌ مِن خَلّة[١] القَصَب
تَهِبُ الوجودَ لِأمّةِ العَرَبِ
نَشَرَت عَلى الآفاقِ خُضرتَها
وَتفجّرَت نُورا مَدى الحِقَبِ
ما زُرتُها إلّا وَعاجَلَنى
مِنها سؤالُ الحُزنِ: أينَ أبِى؟

(القاسم، ١٩٩٣م، ج٣: ١٧١)

يتشبّث القاسم بالزيتونة ويشيد بها ليؤكد أنّها عصارة تمنح الحياة للشعب العربىّ ولولا هذه لما بقى شىء من تراثهم؛ فذاک التراث واحد من تلک الجذور الراسخة التى ترتكز عليها كلّ أمّة فى مواجهة أىّ رياح تعصف بوجودها القومىّ، فيزوّدهم وجود الزيتونة بإحساس قوىّ بخلفيّتهم، ويقين متعالٍ بأصالتهم وعراقتهم. إنّ الموتيف الموظّف فى هذه الأبيات بواسطة الزيتونة يخصّ حالتى الفرح والحزن وأمّا خضرة الزيتونة وانفجار ضوءها؛ فهُما ليسا إلّا تبيين لحالة الفرح بغية نشر السلام والرجاء فى قلب الشعب الفلسطينىّ لكنّ الشاعر حينما يقصد الاقتراب من الزيتونة تلازمه حالة الحزن الّتى تتبادر إلى ذهنه بشكل سؤال هو: هل تريد أن تزيد من حزنک بزيارة الزيتونة، فى الواقع تخضرّ الزيتونة إلّا أنّها محزونة من أنّها لاتغرس ولاتنبت بأبناء فلسطين بل بيد غير أبناءها؛ لذلک حزن الزيتونة بزيارتها ينتقل إلى سميح القاسم وانفجار ضوءها يبثّ علامة اخضرار الأرض واستقامتها إلى جانب نهبها.

إنّ لون الزيتونة المخضرّ ليس مجالا مغلقا لرسم الصورة المقاوميّة بل ظاهرها تماما

١. الخلّة: الخصلة.

www.SID.ir

Archive of SID

من الجذع، والجذر، والزيت، والغصن و... يحظى بميزات فريدة تتيح الحقل لولوج الشاعر فى أىّ منها لإكمال هدفه. وهذه المرّة تلفت أغصان الشجرة عناية القاسم نحوها:

وَأنتِ أيّتُهَا الشَمسُ
أيّتُها العَجَلةُ الهاربةُ مِن مَركبةِ اللهِ
إهدئِى قَليلا وانظُرِى إلىَ الهواءِ..
ملايينُ الأيدى مَشدودةٌ نَحوَكِ
ألا ترَينَ أغصانَ الزَّيتونَ هذه؟
إنّها أيدِينا .. أيدِينا القديمةُ المَبتورةُ[١]
وَكلّها مَشدودةٌ نَحوَكِ (القاسم، ١٩٩٣م، ج٤: ١٨٠ – ١٧٩)

لاتنتهى استعانة القاسم بالطبيعة مركّزا على شجرة الزيتونة بل يلوذ بالأشياء المرتبطة بها ويستفيد من البواعث الّتى تُنبتها وتحول دون نبتها لمصلحته؛ لأنّها تساعده على توفير صورة موتيفيّة مؤثّرة مثل رنوّه إلى الشمس الّتى تطلع وتغرب على التوالى وهى تظلّ عند القاسم رمزا للعون والحماية لشجرة الزيتونة، يبدو أنّ القاسم جمع هنا المشهدين: أوّلهما مشهد الطبيعة المتكوّن من حركة الشمس والزيتونة، وثانيهما مشهد ساحة الحرب المتكوّن من حوار المعين والمستعين فيها؛ فليمنع الشاعر شمس ساحة القتال عن الغياب يتمسّك بذكرها بالتشبيهات المؤثّرة مثل تشبيه الشمس الهاربة من الإشراق نحو شجرة الزيتونة بهاربة من مركبة الله، فقدّس بذلك عمل الإشراق "هو الرفدة والحماية" ثمّ يشبّه أغصان الزيتونة بأيديهم الممدودة نحو الشمس لتطلب منها الإشراق وإن لم تنعطف أمام هذا الطلب المرجوّ فأظهرت بخلها وقسوتها.

النتائج

لقدكان الموتيف فى شعر سميح القاسم موقفا ممنهجا على التأكيد والإلحاح وهو ليظهر إلحاحه على الموتيف لميقع فى شبكة من تكرار عشوائىّ يدلّ على التفنّن فى البيان فحسبُ؛ بل يتوخّى به غاية جماليّة هى إثارة المخاطب وإحالته إلى قضية محيطة به؛

١. المبتورة: المقطوعة.

www.SID.ir

Archive of SID

فالبحث عن الصورة الشعريّة حول موتيفى النخلة والزيتونة فى شعر سميح القاسم، ناتج عن العثور على تواجدهما المكرّر فى الأشعار وهذا التكرار الموتيفى لشجرتى النخلة والزيتونة كان بينهما متساويا على التقريب وإن كان الإختلاف بينهما فى استتباب الموتيفين ضمن القصائد وفى المضمون الّذى يضمره أى منهما والّذى يثمر الكشف عن تجربته الثوريّة فى إطار الهدف الواحد هو فكرة المقاومة؛ لذلك كان موتيف النخلة لديه دفقة شعوريّة يكمن وراءه الشعور القومىّ ويقصد به العثور على مخرج ليهرب به الشاعر من المحنة الّتى أصيب بها فى موطنه؛ فيصورّ النخلة فى شعره شجرة تتصف بميزات تبعد عنها غيرها من الأشجار، على سبيل المثال هى شجرة تصبح محورا يتوقّف عليه كلّ نظم العالم وأحداثه من السمعيّة والمرئيّة، هى رمز للإستقامة الخالدة للأرض، ورمز للحياة الجديدة والنشاط، وعلامة واضحة لخلود الأرض، وتصبح للإنسان الفلسطينىّ مرشدة توجّهه إلى طريق الصواب أو تحلّ محلّه كمقاتلة فلسطينيّة تلج فى المعركة، غيرأنّ الزيتونة فى شعر القاسم تختصّ بالقضيّتين؛ الأولى ترتبط باكتراث الشاعر لقداسة الشجرة، هى الّتى تعود إلى حدّ بعيد إلى وجدانه المتماسک مع التراث الدينىّ، والثانية دالّة على أنّ الزيتونة ولاسيّما اخضرارها يبعث حياة للأرض الفلسطينيّة وشعبها حتّى تفضى إلى رمز للتجدّد والعمران.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

ابن منظور. (لاتا). لسان العرب. تحقيق عبدالله على الكبير، محمد أحمد حسب الله، هاشم محمد الشاذلى. القاهرة: دار المعارف.

بلاوى، رسول ومرضيه آباد وعباس طالب زاده وعباس عرب. (١٣٩١ش). «موتيف النخلة فى شعر يحيى السماوى». الجامعة اللبنانيّة. مجلّة الدراسات الأدبيّة. رقم ٧٦،٧٧،٧٨، صص ٨٦-٦٥.

پيرانى شال، على وزهرة ناعمى وخديجة هاشمى. (١٣٩٢ش). «نقد اللون الأحمر والأخضر ودراستهما فى أشعار نازک الملائكة». إظاءات نقديّة فى الأدبين العربى والفارسى. س٣. ع١٢. صص٥٢-٣٣.

تقوى، محمد وإلهام دهقان. (١٣٨٨ش). «موتيف چيست وچگونه شكل مى گيرد». فصلنامه تخصّصى نقد ادبى. ع٨. صص٣٢-٧.

خلف، يونس حمش. (٢٠٠٦م). «النخلة فى التعبير القرآنى». مجلّة التربية والعلم. ج١٤. ع١.

www.SID.ir

Archive of SID

صص١٢٣-١٠٠.
سـقيرق، طلعت. (١٩٩٣م). الشـعر الفلسـطينىّ المقاوم فى جيله الثانى؛ من قصيدة الثبات إلى قصيدة الانتفاضة فى الوطن المحتلّ. دمشق: اتّحاد الكتّاب العرب.
عبدالأمير، صفا بطفى. (٢٠١٠م). «الأبعاد الجماليّة للمئذنة فى العمارة الإسلاميّة». مجلّة جامعة بابل، العلوم الإنسانيّة، م١٨، ع٢، صص ٥٥٧-٥٤٩.
العبسـى، محمّد موسـى على. (١٩٩٤م). النخيل فى الشـعر العربى. رسالة ماجسـتير. عمان: الجامعة الأردنيّة.
عتيق، عمر. (٢٠١٤م). «دراسـة أسلوبيّة فى الزجل الشعبى ديوان تعب السنين للشاعر موسى الحافظ نموذجا». مجلة التراث والمجتمع. ع٥٦. صص١١٢-٨٣.
عجينة، محمّد. (١٩٩٤م). أساطير العرب عن الجاهليّة ودلالاتها. ط١. بيروت: دار الفارابى.
العمارى، الطيب. (٢٠١١م). «النخلة فى البيئة الصحراويّة قيطة اقتصادية ورمزية سوسيوثقافية». مجلّة الواحات للبحوث والدراسات. ع١٥. صص ٢٤٩-٢٣٨.
عنوز، كاظم عبدالله عبدالنبىّ. (٢٠٠٧م). «تراسـل الحواس فى شعر الشيخ أحمد الوائلى». مجلّة مركز دراسات الكوفة. ع٦. صص١٧٦-١٦٧.
القاسم، سميح. (١٩٨٧م). ديوان سميح القاسم. ج١. بيروت: دارالعودة.
القاسم، سميح. (١٩٩٣م). الأعمال الكاملة للشاعر سميح القاسم. ج٢. الكويت: دار سعاد الصباح.
القاسم، سميح. (١٩٩٣م). الأعمال الكاملة للشاعر سميح القاسم. ج٣. الكويت: دار سعاد الصباح.
القاسم، سميح. (١٩٩٣م). الأعمال الكاملة للشاعر سميح القاسم. ج٤. الكويت: دار سعاد الصباح.
القطّ، عبدالقادر. (٢٠٠١م). فى الأدب العربى الحديث. القاهرة: دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع.
الكسـوانى، ناهدة أحمد. (٢٠١٢م). «تجليّات التناص فى شـعر سميح القاسـم مجموعتا "أخذة الأميرة يبوس" و"مراثى سميح أنموذجا"». مجلّة قراءات. ع٤. صص٣٢-١.
لوشن، نور الدين. (١٤٢٦ق). «التناص بين التراث والمعاصرة». مجلّة جامعة أم القرى لعلوم الشريعة واللغة العربية و آدابها. ج١٥. صص ١٠٢٤-١٠١٩.
المصلح، عبدالله عبدالعزيز، عبدالجواد الصاوى. (١٤٢٩ق). الإعجاز العلمىّ فى القرآن والسـّنة. ط١. جدّة: دار حياد للنشر والتوزيع.
المنصور، زهير أحمد. (١٤٢١ق). «ظاهرة التكرار فى شعر أبى القاسم الشابى؛ دراسة أسلوبيّة». جامعة أمّ القرى. السنة الثالثة. ١٣٥٩-١٣٠٣.
النوافعة، جمال فلاح. (٢٠٠٨م). أثر القرآن الكريم فى الشـعر الفلسـطينى الحديث. أطروحة دكتوراه. جامعة مؤتة: عمادة الدراسات العليا.

www.SID.ir

Archive of SID

المصادر الإنكليزيّة:

Abrams, m.h(1999): a glossary of literary terms, printed in the united states of America.

Alwan, f.s, m.saio, gl. Simon, m.sassine(2004): dictionnaire francais-arabe, beyrouth, liban.

Baldick, chris(2001): the concise oxford dictionary of literary terms, oxford univer sity press.

Oxford University (1978): The Oxford English Dictionary. University press: Oxford.

المصادر الإنترنتيّة:

جمعيّة أصدقاء النخلة. (٢٠١٣م). النخلة فى وجدان الشاعر سلطان بن خليفة الحبتور. www. iraqi-datepalms.net/Uploaded/file/MagazineDatePalms121.pdf .

عسكر، قصى الشيخ. (٢٠٠٩م). مفهوم الحيوان والطير فى شعر الشاعر صدام فهد الأسدى. موقع الناس، http://al-nnas.com/CULTURE/13sd.htm.

www.SID.ir